٨

الطاغية

وكان عمرو قد أصهرَ إلى قَيل من أقيال اليمن يقال له ذو الشناتر، فظ غليظ القلب، جافى الطبع، سيئ الخلق مدخول الضمير. على أن خصاله هذه لم تكد تبدو منه للناس حين كان قَيلاً من الأقيال لا ينبسط سلطانُه إلا على المخلاف الذى كان يعيش فيه، فقد كان ماهرًا عظيم المهارة، مُداورًا شديد المداورة، يلقى الرجل فيخدعه ويُخيل إليه أنه أكرمُ الناس وأصدقُ الناس، وأرحمُ الناس، وأوفاهم وأشدَّهم استقامةٌ واعتدال مزاج. لذلك انخدع فيه أقرانه من الأقيال والأذواء، وحَسنَ فيه رأى تُبع حتى قدّمه وعظمه واختار ابنته تُماضر زوجًا لابنه عمرو. وكانت تُماضر بارعة الجمال، ذكية القلب، رضية النفس، شديدة الحنان أنكرت فى زوجها الغدر،ولكنها لم تجرؤ على أن تُباديه بهذا الإنكار، ولو قد فعلت لأصابها شر عظيم. فلما خضَّبَ زوجها يده بدم أخيه نفرت منه وأزْوَرّت عنه، ولكنها على ذلك أظهرت طاعةً وإذعانًا. حتى إذا سُلطت على عمرو شياطين الانتقام فأخذه منه الفزعُ والجزَع وألح عليه البؤس واليأس، ثابت على تماضر رقةُ قلبها ورضا نفسها وميلها إلى الختان، فلزمت زوجها ورفقت به، وآست زوجها وعطفت عليه. حتى إذا حل به الموت كانت وحدها التى سكبت عليه الدمع وذاقت لموته الحزن والغم. وكان لها صبى لم يبلغ الرابعة، وكان لزوجها أخ لم يبلغ السابعة، فجمعت أخا زوجها إلى ابنها، وقامت على تربية الطفلين، فمنحتهما من الحب والحنان ما كان يملأ قلبها الرحب الرقيق، ووقفت عليهما من البر والرق والعطف ما تمنحه الأمُ أبناءها، وما تقدمه الزوج إلى زوجها. ولو قد خُيرت فى ذلك الوقت لما تمنت إلا أن تُترَك فى ناحية من نواحى القصر أو تنحاز إلى مخلاف من مخاليف اليمن بعيد عن صنعاء، ومعها هذان الصبيان، تسعد بهما ويسعدان بعطفها وبرها. ولم تكن تفكر لنفسها ولا لأحد الصبيين فى مُلك ولا وراثة، إنما كان همها أن تُنفق نشاطها كله فى العناية بهذين الطفلين، وأن تجد جزاءها على ذلك فى هذه النظرات الحلوة التى كانت ترتفع إليها من أعين هذين الصبين فتملأ قلبها غبطةٌ وحبورًا، وفى هذه الأصوات العذبة التى كانت تقع فى أذنها موقع الموسيقى وتصيب من قلبها مواقع الرضا والابتهاج. ولكنَّ أباها فكرَ فى الملك لها ولابنها فى ظاهر الأمر، وفكر فيه لنفسه فى أقصى ضميره ودخيلة قلبه. وما هى إلا أن أعلن أن حماية الأسرة المالكة قد صارت غليه، وأنه ناهضٌ بها على أحسن ما ينهض الأوصياء بأمر الذين يقومون عليهم من القاصرين وأظهر ذو الشناتر أولّ أمره سيرةٌ حسنة ونهجًا صالحًا فى الملك. ولكن تفوقٌ حمير، وانفصال أطراف اليمن عن صنعاء، واستبداد الأقيال والأذواء بما كان فى أيديهم من المخاليف والقصور، وطموح العظماء بين هؤلاء الأقيال والأذواء إلى سعة الملك وبسط السلطان، كل ذلك أغراه بالشدة ودفعه إلى اليأس.

فما أسرع ما قبل الإغراء واندفع إلى الطغيان، وإذا هو يصطفى لنفسه من الجند والقادة قومًا يؤثرهم بالمودَّة،ويختصهم بالمعروف، ويسبغ عليهم النعمة ويُجزل لهم العطاء، ثم يستعينهم على غيرهم من الجند والقادة. وما يزالُ يغرى ويغوى، ويمكر ويكيد، حتى تخلُص له صنعاء وما حولها من الأرض؛ ثم إذا هو يضرب بمن أطاعه من عصاه، ويبعث الهيبة والخوفَ كما يبعثُ الرغبة والرجاء، حتى يعظم أمره، ويُظهر أشرافُ حمير له الطاعةَ إشفاقًا منه أو أملاً فيه. وأنفق ذو الشناتر أعوامًا على هذا النحو رقيقًا شديد الرفق بمن رجا منه الخير وانتظر منه النفع، عنيفًا شديد العنف على من يئس من نُصحه ولم يتوسم فهى خيرًا ولا نفعًا. حتى إذا دانت له اليمن كلها، وآمن له العظماء والأشراف، ولم يبقَ له بينهم مُنازع أو مدافع أظهر ما كان قد أخفى من أمره، وأعلن ما كان قد كتم سرَّه، فاغتصب المُلك لنفسه خالصًا من دون ابنته وسِبْطه، ومن دون أهل البيت من أبناء تُبع وذويه. وألقى بتماضر والصبيين فى قصر بعيد هو بالسجن أشبه منه بالقصر، وأقام عليهم الحراس والرقباء يعدون عليهم ما يقولون وما يعملون، ويضيِّقون عليهم فيما كان ينبغى أن يتسع لهم من سُبل الحياة.

وفرغ ذو الشناتر بعد ذلك للأشراف والعظماء، فأعمل فيهم مكره وكيده، ثم سلط عليهم بطشه وبأسه، وأخذ يطغى عليهم ويسىء السيرة فيهم؛ فإن أذعنوا لطغيانه واستكانوا لسوء سيرته أمعن فى الطغيان وأسرف فى سوء السيرة، وإن أظهروا نبوًا أو هموا بإباء الضيم، بطش بهم بطشًا عنيفًا لا يبقى ولا يذر. وما هو إلا عام وبغض عام حتى كان ذو الشناتر قد أراح نفسه من سادة حمير وذوى المكانة والسن فيها. ثم نظر فلم ير لنفسه قرينًا ولا ضريبًا، فازداد لنفسه إكبارًا وبها إعجابًا، وازداد لحمير إذلالاً وعليها تسلطًا وتجبرًا. وأقبل على اللذات بمقدار ما كان يُعرض عنها، وتهالك عليها بمقدار ما كانُ يظهر النفور منها. وما أسرع ما تجاوز فى ذلك كل حد، وخرج على كل سنة؛ وأسرف فى الأعراض يعتدى عليها، وفى الحرمات ينتهكها، وفى الأموال يستصفيها ويؤثر نفسه بخيارها حتى خافت حمير أشد الخوف، وضاقت به أشد الضيق، وتمنت له أشد النكر، وأظهرت له أشد الحب.

فلما طال ذلك على حمير لم تزد إلا خوفًا، ولم تُضمر منه إلا إشفاقًا وذُعرًا. ولكن الشباب من أبناء السادة والقادة عجزوا عن ضبط العواطف والأهواء، وكرهوا عيشة الذل والخضوع، فجمجموا وغمغموا أول الأمر ثم انطلقت ألسنتهم بعد ذلك بالنكير واللوم، ثم سعى بعضهم إلى بعض وأخذوا يمكرون ويدبرون. ولكن الطاغية كان أشد منهم مكرهًا، وأنفذ منهم أمرًا، وأحسن منهم تدبرًا؛ فما هى إلا أن يستهوى فريقًا منهم بالمال، ويغوى فريقًا آخرين بالوعد وإظهار المودة، حتى إذا ظفر من بعضهم بالطاعة والهوى استعانهم على من لم يظفر به، حتى

استقام له أمره، وإذا هو ينتقم لنفسه من هؤلاء الشباب بما يستطيع أن ينتقم به من ضروب الكيد وألوان الإذلال.

وكان كلما تقدَّمت به السن واستوثق له الأمرُ وأسرعَ الفساد فى خلقه وطبعه. ومزاجه، فذاق من اللذات ما يباح، وذاق منها ما يُحظَر، وجرّبَ من اللذات ما يُعرَف وجرب منها ما يُنكر، وأصبح قصره بيئةً للشر والإثم لم تعرف مثلها صنعاء فيما مضى من الدهر. وأفاق ذو الشناتر من سُكره ذاتَ يوم، فخطر له على غير انتظار ولا تفكير ذكرُ ابنته تُماضر وابنهما عُمير وأخى زوجها زُرْعة، وكان قد فارقهم منذ أعوام طوال حتى نسى أمرَهم أو كاد ينساه. فلما خطر له ذكرهم فى هذا اليوم أنكرهم، ثم هابهم، ثم اشتد خوفه منهم فاشتد مكره بهم وكيده لهم. ولم يحتج إلى تدبير طويل، حتى استقر رأيه على أن يخلص منهم ويُزيلهم من طريقه. فأقدم، ويا شر ما أقدم! وعزم، ويا سوء ما عزم ثم أنفذ ويا نكر ما أنفذ! أمر أن تُقتل ابنته وسبطه خنقًا حيث هما فى القصر، وأن يُحمل غليه ابنُ تُبع الشاب. وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى أنفذَ أمرُ الملك فرأت تُماضرُ ابنها يُصرَع بين يديها، ورأى زُرْعةُ ابنَ أخيه وأمه الثانية يُقتلان بمرأى منه، وانتظر أن يسعى إلى الموت، ولكن الموت أعرض عنه، ولم يسع إليه إلا القيدُ والغُل!

فلما انتهى الفتى إلى القصر وأدخل على الملك، فهش له الملك وبش وتلقاه بالعطف والبر، وأمر فَحطمت عنه الأغلال والقيود، وأمر فأصلح من زيه ورُفه عليه، ثم دعاه فما زال يلاطفه ويؤنسه ويؤكد له أنه لا يريد به إلا خيرًا، ولا يُعدّ له إلا نعيمًا وملكًا عظيمًا وأنه لم يفعل ما فعل ولم يجن ما جنى إلا ليخلص مُلك تُبع لابن تُبع هذا الذى يلم يقترف إثمًا ولم يقطع رَحمًا ولم يَغمس يدهَ فى دم برئ، وأنه لم يستطع ولن يستطع أن يغفر لعمرو قتلَ أخيه، ولا لتماضر ابنته رضاها بهذا الإثم وصمتها عليه. ولم يستطع – وما كان ينبغى له – أن ينقل الملك عن عمرو الآثم إلى عمير الذى وُلد فى الإثمُ ونشِّئ عليه. لقد قتل عمرو حسانًا، ثم قتل نفسه، وقتل هو ابنه عميرًا، وخلصت بذلك حمير واليمن من هذا الإثم المنكر الذى كان يوشك أن يجر عليها شرًا لا ينقضى...!

والآن وقد طَهُرَت اليمن من هذا الرّجس، وخلصت صنعاء من هذا الشر، فقد آن لملك تُبَّع أن يؤول إلى ابنه البرىء. وإنما هى أعوام أهيئك فيها للنهوض بأمر الملك، وأعلمك فيها ما لم تعلم فى أعماق ذلك القصر، وأقربك فيها إلى الجند والعظماء، وأقرب فيها الجند والعظماء إليك، حتى إذا تم لك من هذا كله ما ينبغى، أصحبت – يَعدُ– قَيلاً من أقيالك، وقدّمت إليك عرشَ أبيك وتاجه وصولجانه. وما زال يقول ذلك للفتى وكثيرًا مثله، وما زال يزيّن له من الوعود والأماني، والفتى يُظهر أمنًا بعد خوف، وثقةً بعد شك، ورضًا بعد إنكار، حتى استيقن الشيخ الآثم أن قد استأثرَ بالفتى البرىء.

هنالك أخذ يُغريه ويغويه ويحبب غليه اللذة ويزين له الفجور، والفتى يُظهر إقدامًا حيًا وإحجامًا حينًا، ويطمعه مرةً وُيؤيسه مرات، ولا يُضمر له فى نفسه إلا أقبح المكر والكيد. وأصبح ذو الشناتر ذات يوم وقد همّ بأمر عظيم. وأصبح الفتى ذلك اليوم وقد تهيأ لأمر عظيم. وما ارتفع الضحى حتى أقبل رسول الملك يدعو الفتى إلى منادمته. فأظهر الفتى طاعةً سريعة واستجابة ليس فيها تردد ولا التواء. ومضى الفتى إلى تلك الشرفة التى كان يجلس فيها الملك ويخلو فيها إلى نديمه. وما كان يخلو قط إلى غير نديم، وصَعدَ الفتى إلى تلك الشرفة وإن الموتَ لكامن بين قدميه ونعليه. حتى إذا بلغ مجلسَ الملك حيًا فأحسن التحية، ولقيه الملك فأحسن اللقاء. وكان بين الشيخ الآثم والفتى البريء حديث لم يطل، ومعاقرة لم تتصل.

ثم همم الشيخ بأمر، وأقدم الفتى على الأمر، وانصرف الفتى بعد ساعة فلما رآه الجند خارجًا من عند الملك نظروا إليه مُشفقين ساخرين، وتندروا به وإن قلوبهم لتتفطرُ حزنًا وحسرةً أن ينتهى ابن تُبع إلى هذا الذل والهوان! ولكنهم نظروا فإذا الفتى لا يخفض رأسًا ولا يَغض طَرفًا ولا يُسرع فى طريقه. هنالك تقدم إليه أحد الجند مزدريًا مُكبرًا فى وقت واحد، وسأله: كيف تركتَ الملك؟ قال الفتى فى صوت حازم لا عَوجَ فيه: دونك الملكَ فَسله كيف تركته. فمضى الفتى فى طريقه هادئًا مطمئنًا. وأنكر الجند هذا الحزم وهذا الهدوء، فصعد بعضهم إلى الشرفة، وما كاد يبلغها حتى صاح صيحة اضطربت لها أرجاء القصر: ألا إن ابن تُبع قد قتل الطاغية واسترد ملك أبيه!

فَلما كان من غد كان زُرْعةُ قد جلس على عرش تُبع، وتسمى يوسف، وتلقبَ ذا نُواس، واتخذ اليهودية له دينًا، وأخذ يردَ حمر إليها.